بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى خلق الإنسان، علّمه البيان، وأنزل الحديد، فيه بأس شديد، ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسُلَه بالغيب، علّم داود – عليه السلام – صنعة الدروع، وأمره بضرورة الإتقان فى الصناعة فقال: ﴿ **وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ** ﴾ [سبأ: ١١]، واعتبر الحرفة للإنســان كرامة، والإتقان للعمل دينًا وعبادة وشكرًا، قال – تعالى –: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ:١٣]، فما من الأنبياء نبى – وهم فى موضع الأسوة والقدوة من البشر – إلا كانت له حرفة.

وصلى الله على سيدنا محمد الذى كانت حياته نموذجًا عمليًّا للقيام بأعباء الاستخلاف الإنسانى، والبناء الحضارى، وبعد:

فيأتى الكتاب المعنون «**قضية التخلف العلمى والتقنى فى العالم الإسلامى المعاصر**» للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار، مساهمة جادة فى تحقيق الوعى الحضارى، وإعادة بناء الشخصية المسلمة، بعد أن افتقدت الكثير من فاعليتها ومنهجيتها وأصبحت تعانى الاغتراب من وجهين: الاغتراب الحضارى المعاصر بعجزها عن الإنجاز والمساهمة فيه، والاغتراب التاريخى أيضًا لعدم قدرتها على تمثله والاهتداء به.

ولعل من نافلة القول: التأكيد على أن الإسلام اعتبر طلب العلم فريضة، واعتمد حسن توظيفه وسيلةً لبناء الحضارة المثلى، ذلك أن الإنجاز الحضارى

للمسلمين الأوائل كان مرتبطًا بمدى استجابة الأمة للخطاب الإلهى، وارتفاعها إلى مستوى الإسلام، وحاجات العصر، والإسلام دين العلم والمعرفة ومعضلة «التخلف العلمى والتقنى» التى نعانى منها اليوم، لا تحل بكثرة الشكوى، ولا بمزيد من المواقف الخطابية العاطفية، أو الحماس والتوثب الروحى فقط، وإنما لابد من الإدراك الكامل لمشكلة التخلف، ودراسة المناخ الذى مكَّن لها، ومعالجة الأسباب، وما يقتضيه ذلك من الصبر والدأب والمراجعة وتصويب الخطى، وعدم الاقتصار على الإحساس بالظواهر والأعراض.

وصحيح أن نفرا من المنتمين للإسلام، الملتزمين بشرائعه، قد استطاعوا إلى حدٍّ بعيد كسر الحاجز النفسى، وأمكنهم التخلص من المحاصرة، والخروج من المناخ الذى أُريدَ لهم، وضُرِب على عالمهم: من الدعاوى الباطلة بأن العلم والتقنية يناقضان الدين. وبإمكاننا القول هنا: إن أعداء الإسلام استطاعوا استيراد المعارك التى دارت بين العلماء ورجال الكنيسة أى: بين الحضارة والكنيسة فى العصور الوسطى، إلى المناخ الإسلامى، فى محاولة لتحقيق النصر الذى حدث هناك؛ فاستوردوا المعركة التى لم يكن الإسلام طرفًا فيها، ليستوردوا انتصارات موهومة، دون وعى بالميراث الثقافى، والإنجازات العلمية للأمة الإسلامية. ومشكلتهم الأساسية أنهم اعتمدوا الحضارة الغربية ومقولاتها مقياسًا لكل حضارة.

نقول: لقد استطاع الملتزمون بالإسلام، حل تلك المعادلة التى كانت تبدو صعبة بين الدين والعلم، وأمكنهم فعلاً التحقق بأدق الاختصاصات، واعتلاء أرقى المنابر العلمية، والمساهمة فى الإبداع والاختراع، مع احتفاظهم بهويتهم الثقافية، وانتمائهم الإسلامى والتزامهم الشرعى، ولو حاولنا الآن القيام بإحصاءات للمتفوقين بالاختصاصات العلمية النادرة فى العالم العربى والإسلامى، لوجدنا معظمهم من الملتزمين إسلاميًا، لأن الإيمان وفر لهم طاقاتهم، وأحسن توجيهها، وضبط سلوكهم، وأكسبهم الطمأنينة وسكينة النفس، وكلها

شروط مطلوبة للإنجاز العلمى، بينما نرى الآخرين يحملون الخيبة والفشل، ويحاولون استدراك نقصهم، وتخلفهم، وفشلهم بالانتماء إلى أفكار وهيئات ومؤسسات تصنع الشهرة وتساهم بالوصول إلى السلطة، والأضواء التى نراها لبعض النماذج أقرب إلى صناعة الأجنبى، وهى بعيدة أصلاً عن الساحة العلمية.

يضاف إلى ذلك، أن التقدم العلمى والتقنى الذى يتضاعف اليوم كل عدد محدود من السنوات لم يسجل إصابةً واحدة على الخطاب الإسلامى، ومعرفة الوحى بعد خمسة عشر قرنًا، بينما لم يستطع النص الدينى عند غير المسلمين، الصمود أمام الحقائق العلمية البسيطة. وسقط عند الصدمة الأولى.

ومع ذلك يبقى السؤال الكبير المطروح هنا: هل استطاع العلماء من أبناء المسلمين الذين أمكنهم التحقق بأدق الاختصاصات واعتلاء أرقى المنابر العلمية، توظيف واستثمار هذا التخصص فى خدمة العقيدة وصناعة الحضارة، وتحقيق كسب مقدور لأمتهم؛ أى جعل الاختصاص العلمى فى خدمة العقيدة والدعوة والمبادئ الإسلامية؟ لاشك بأن الإجابة الدقيقة حول هذا السؤال تقتضى استقصاءً للعديد من العوامل الداخلية والخارجية، واستقراءً للمعوقات على أكثر من صعيد أيضًا، وإن كنا نعتقد أن الإصابة الذاتية الداخلية تبقى هى الأساس، والعامل المؤثر: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وعلى الرغم من أنه قد يكون للعلماء من المسلمين بعض العذر لما هم عليه، لأنهم انشغلوا بخاصة أمرهم، وحماية أنفسهم، ومواجهة العداوات والكيود لهذا الدين التى استنفدت معظم طاقاتهم، إلا أنه لابد من القول أيضًا: بأن منهم من عجز عن امتلاك الرؤية الشاملة لوسائل وآفاق الدعوة إلى الله - لسبب أو لآخر - وبذلك حاصروا أنفسهم قبل أن يحاصرهم أعداؤهم.

وقد لا نأتى بجديد إذا قلنا بأن العلماء والتقنيين اليوم هم الذين يحكمون العالم فعلاً، ويقررون مصيره، وأن الذين يحتلون مراكز البحث العلمى

والتعليمى هم صانعو القرار، والموقف السياسى فى نهاية المطاف، وأن القرارات السياسية لم تعد تنشأ فى فراغ وإنما هى ثمرة لما تقدمه مراكز المعلومات، ولسنا بحاجة لإبراز دور الكيان الصهيونى الغاصب لأرض فلسطين ومدى تأثيره فى هذا المجال، وأن جيش العلماء منهم فى مراكز البحث العلمى والمخابر والجامعات ومؤسسات تطوير الأسلحة، كان ولا يزال هو المؤثر فى رسم السياسات فى منطقتنا العربية، وفى غيرها من مناطق العالم.

ومن الأمور التى لابد أن نعرض لها فى هذا المجال، أن المسلمين اليوم بشكل عام – كثمرة للتخلف والعجز – اللذين أصابا الأمة فى العقود القليلة الأخيرة نراهم أكثر حرصًا على الفروض العينية منهم على الفروض الكفائية؛ حيث تقع قضية العلم والتقنية، بل قد تستغرقنا وتشغلنا أحيانًا بعض المستحبات والمندوبات، على حساب الفروض والواجبات، وقد يستنكر بعضنا على المقصّر فى بعض المندوبات والمستحبات ما لا يستنكر على المتقاعس فى أداء الواجبات والفروض الكفائية! وبذلك تراجعنا عن الكثير من المواقع العلمية المؤثرة، إضافة إلى انحسار ساحة الفروض الكفائية فى تصورنا للفروض.

والتقدم العلمى والتقنى ليس فقط شرطا للنهوض، وبناء المستقبل، وتحقيق الاستقلال، والتخلص من التبعية والتحكم الأجنبى، وإنما يتجاوز ذلك إلى البعد الدينى، والمسلك الأخلاقى الذى يترتب على فعله الثواب، وعلى تركه العقاب والتأثم؛ إنه من الفروض الكفائية، ومن المعلوم أن فرض الكفاية واجب اجتماعى تكافلى مسؤوليته ذات بعدين: بعد فردى، بحيث يصبح فرض عين على من باشره وتوجه إليه إذا تعين قيامه بهذا الفرض لكفاية الأمة؛ وبعد اجتماعى لأن أداءه منوط بأفراد المجتمع جميعهم، ثوابًا فى حالة الكفاية، وعقابًا فى حالة العجز والعطالة.

وقد عرّف علماؤنا فرض الكفاية بأنه: الأمر الذى إذا قام به بعض المسلمين،

سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركوه أثموا جميعًا. وكلمة (قام به) فُسرت فى عصر التخلف العلمى بمجرد مباشرته، سواء تحققت الكفاية أم لا.

والحقيقة أن الذى نفهمه من معنى: (إذا قام به)، أى: إذا أدّاه على الوجه الأكمل؛ فلا تبرأ الأمة المسلمة من الإثم ما لم يكن فيها من المتخصصين والعلماء والتقنيين بقدر كفايتها، هذا إذا لم نقل بمسؤوليتها تجاه الإنسانية عامة التى تقتضيها القيادة والشهادة.

ومن الإصابات التى لحقت بمسلمى اليوم أن عددا ممن اختاروا الطريق العلمى أو التقنى كفايةً لأمتهم، وتحقيقًا لأداء ما تقتضيه أمانة الاستخلاف فى الأرض، بدأ ينسحب من الساحة، ويتوقف عن المتابعة فى جامعته ومعهده، ومخبره، ليتحول إلى واعظ، ومفسر وفقيه، يدخل نفسه فى أمور كثيرة قد يقتضيها الاختصاص الدقيق واستحضار الأدوات الضرورية اللازمة للفهم وهو لم يتحقق بها، وبذلك يزيد المسلمين تخلفًا على تخلفهم، واضطرابًا وبعثرة وتمزقًا، ويدع مكانه واختصاصه معطلاً، ظنًّا منه بأن عمله لا يقع ضمن التكاليف الشرعية. والأدهى من ذلك كله، ظن بعض المسلمين أن وجودهم فى موقع الاستهلاك ووجود أعدائهم فى موقع الإنتاج والتصنيع من نعم الله عليهم (!!) لأن الله سخر لهم الأعداء لخدمتهم، ولهذه القلة من أبناء المسلمين نقول: إن ذلك من معطيات التخلف المغاير للمسيرة الحضارية الإسلامية وسائر إنجازاتها.

يضاف إلى ذلك أن بعضنا قد لا يرى من الحضارة المعاصرة إلا عيوبها - وقد جاءت ثمرةً لتقدم العلم والتقنية - وتكبر هذه السلبيات فى عينه حتى تصل به إلى اليقين بأن هذه الحضارة سوف تؤول إلى السقوط والانهيار، وما عليه إلاّ أن يمارس الانتظار، ويعفى نفسه من أى دور ومسؤولية، أو تحقيق أية خصائص تؤهله للتبادل الحضارى. فالحضارة علم وتقنية، فكر ومعارف وخبرات متبادلة، وتراكمات علمية مستمرة، وخصائص وصفات نفسيَّة تؤهل للقيام

بالدور المطلوب، أما الرؤية التى تقتصر على الولع بتتّبع العيوب فى الدول الصناعية، وتكبيرها، والاقتصار على ذلك وانتظار سقوطها، بسبب انهيارها دينيا وروحيا وأخلاقيا وسلوكيا فهو لون من خداع النفس. ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن بعض علماء الحضارة الغربية أكثر إحساسًا بسلبياتها منا. وهاجسهم الدائم البحث عن سبيل للعلاج.

وعلى الجانب الآخر لا يرى بعض المسلمين اليوم من الحضارة المعاصرة إلا إنجازها، وإبداعها، إلى درجة يُصاب معها بضرب من العمى عن أزمة إنسان هذه الحضارة، وإصاباته المتعددة، والسلبيات الكثيرة التى ترافقت مع هذا التقدم العلمى والتقنى. فيعيش حالة العجز الكامل، ويسيطر عليه ذُهان الاستحالة فيفتقد بذلك أية قدرة على الإنجاز أو الأمل به مستقبلاً. والمحصلة سوف تكون واحدة فى نهاية الأمر، بين من لا يرى إلا العيوب فينتظر السقوط لمصلحته، وبين من لا يرى إلا الإنجاز والإبداع، فينبهر بتقدم الآخرين ويلغى نفسه تمامًا.

عدا عن أن كثيراً من مسلمى اليوم، يظنون أن مشكلة التقدم العلمي والتقنى يمكن أن تحل بمزيد من الحماس والإخلاص والتوثب الروحى فقط، بعيداً عن فقه آيات القرآن، وهدى النبوة، وسيرة السلف الصالح العملية وكيفيات تعاملهم مع الأسباب، وإدراكهم علل الأشياء، وسنن التغيير، وقوانين التسخير.

أما الذين ينسحبون من الساحة، ويستغرقهم الحديث عن إنجازات السلف، والافتخار بها، دون أدنى جهد منهم، فإنهم يساهمون بشكل سلبى – وربما عن حسن نية – بالإحباط والانكسار النفسى، وتكريس الهزيمة العلمية والتقنية أمام التحدى القائم.

ومن الحقائق التى لا مجال للتشكيك فيها أن القرآن وضع العقل البشرى فى المناخ الصحيح، ووفر له الشروط والظروف المطلوبة لتحقيق ذلك؛ فموضوع القرآن: بناء الإنسان، ووظيفة الإنسان: القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن

طريق الاجتهاد فى العمل وفقه قوانين التسخير. ولذلك طالب القرآن الكريم الإنسان النظر، والملاحظة، والاختبار، وإدراك علل الأشياء، وأسبابها، ليبدع ويبتكر، وينجز، وعرض لبعض الحقائق العلمية لتحقيق غرضه فى الهداية، وصمد النص القرآنى خلال خمسة عشر قرنًا أمام الحقائق العلمية. ورسم سياسة العلم والتقنية وضبط المسيرة العلمية بقيمه الهادية، وحدد هدف العلم وبيّن حكمته ولفت نظر الإنسان إلى علل الأشياء وأسبابها، ودعاه إلى ملاحظة الاطراد فى القوانين الحضارية والمادية.

من هنا نقول بأن المناخ العلمى والعقلى الذى وفره القرآن للإنسان، دفعه إلى البحث والكشف، والإبداع فى المجالات كلها، ولم نلمح فى تاريخنا الحضارى الطويل، تقدمًا فى العلوم الشرعية والإنسانية، وتخلفًا فى علوم الكون، وإنما كان العقل الإسلامى مبدعًا فى المجالين معًا. كما أن إصابات التخلف وانطفاء الفاعلية، جاءت اليوم فى المجالين معًا. فقياس محيط الأرض والتقدم بعلوم الرياضيات والطب والكيمياء، ترافق مع النبوغ فى الاجتهاد، والقدرة على مواجهة المشكلات. ومتغيرات العصر.

وإذا كان العلم اليوم قد أتقن الوسائل، والمقدمات، فإنه افتقد الهدف والحكمة؛ بل نستطيع القول: بأن الوسيلة فى الحضارة المادية المعاصرة قد انقلبت هدفًا تحت عناوين وشعارات مضللة مثل فرية «العلم للعلم»، و«الفن للفن»، وصار الأمر إلى هذا التمرد العلمى الذى أصاب الإنسان نفسه فى مقتل، وصنع أزمته، وجعله بأشد الحاجة لعملية الإنقاذ.

وقد يكون مفيداً – ونحن نعرض للقضية العلمية والتقنية– أن نحدد بعض المفهومات الضرورية لمستقبل الرؤية الحضارية ولنستبين بعض المعالم. وهى أن علماء الحضارة يرون: أن هناك فرقًا بين كلٍّ من مفهوم الحضارة، والثقافة، والمدنية.

فإذا كانت المدنية تعنى: الإبداع، والارتقاء بالوسائل المادية التى تحقق

للإنسان الرفاهية فى مجال الصناعة، والعمران، والمواصلات والزراعات . . . إلخ – أى أن موضوعها وسائل الإنسان (عالم الأشياء)، والإبداع فى مجال الماديات؛ وأن الثقافة تعنى : الارتقاء بخصائص وصفات ومزايا الإنسان، وحسن تأهيله وتربيته، واكتسابه مجموعة معارف تساهم بتشكيل شخصيته، وتكوين نظرته السوية إلى الكون والحياة، وتحديد هدفه وتكوين نسيجه العام، أى أن موضوعها الإنسان نفسه (عالم الأفكار) والإبداع فى مجال المعنويات .

فإن الحضارة تعنى : المدنية والثقافة معًا . فإذا اقتصر التقدم العلمى على وسائل الإنسان وأشيائه المادية فقط، فلا يخرج عن كونه تقدمًا مدنيًّا ولا يمكن تسميته حضارة، وهذا هو الحاصل اليوم فى المدنية الحديثة؛ حيث تتقدم أشياء الإنسان على حساب الإنسان ذاته . لأن هذا التقدم أهمل إنسانية الإنسان، وتنمية خصائصه وصفاته، وتكوين ذوقه العام وتطهير وجدانه، والارتقاء بنظرته للحياة والأحياء . إنه أخرج الإنسان بخصائصه وصفاته وأشواقه من دائرة اهتمامه، وما أهداف زيادة الإنتاج التى دفعت إلى نظريات تقسيم العمل والاصطفاء المسلكى وهندسة الأداء وحذف الحركات غير المجدية فى عملية الإنتاج إلا لون من إلغاء إنسانية الإنسان وتحويله إلى آلة صماء ينظر إليها من خلال ما تقدمه من إنتاج .

ومن الغباء رؤية التقدم فى الجانب المادى للعلم والتقنية فقط، كما أنه من الغباء أيضًا، عدم رؤية الإصابات التى لحقت بهذا التقدم، لأنه اقتصر على وسائل الإنسان وخسر الإنسان نفسه، كما أسلفنا .

ولن نتكلم عن الأسباب الكثيرة التى سببت تخلف العالم الإسلامي العلمى والتقني؛ لأن الكتاب الذى نعرض له تكفل بذلك إلى حدٍّ بعيد، لكن السؤال المطروح : هل يستطيع المسلمون اليوم – وهم على مشارف القرن الحادى والعشرين – أن يقدموا إسهامات تنقذ أو تعالج أزمة الحضارة؟

لاشك أن ما يمتلكه المسلمون من رصيد ثقافى، وتاريخ حضارى، وموقع جغرافى، وتجانس بشرى، ومواد وخامات أولية وطاقات بشرية، ورسالة سماوية إنسانية، وخطاب عالمىّ، يؤهلهم أن يقدموا شيئا مهمًّا للحضارة المادية المنقوصة بشكل عام، بعد أن أصبح العالم دولة واحدة وتيسرت وسائل الاتصال. كما أن بإمكانهم النهوض العلمى والتقنى على المستوى المادى الملموس.

إضافة إلى ذلك، فإن العقل المسلم والمهارات والسواعد الإسلامية تشكل اليوم مساحة كبيرة فى آلية التقدم العلمى والتقنى فى الغرب، وأن مجموعة الأدمغة المهاجرة من العالم الإسلامى لسبب - أو لآخر - لو أتيحت لها الظروف والشروط والمؤسسات المناسبة، لاستطاعت أن تختصر مسافة التخلف، وتردم فجوته، بل وتستطيع أن تقدم شيئًا آخر لا يزال مفقودًا على مستوى الحضارة البشرية.

ولسنا بصدد الكلام عن عوامل الطرد من هنا، والجذب من هناك، وإنما لنعطى مؤشرًا ولو بسيطًا على أن التقدم العلمى هناك يمتص الخبرات والعقول كلها ليبقى العالم الإسلامى متخلفًا، ويبقى العالم الغربى متحكمًا.

ولنا أن نتصور عندما يتحول المخزون العقلى لأمة من الأمم إلى ميادين الإنتاج فى أمة أخرى، فالعقل المتفوق والساعد والمال والمواد الأولية للعالم الإسلامى تصب فى الحضارة الغربية، فكيف يمكن النهوض والتقدم، والحالة هذه؟

وفوق هذا وذاك، فإن باب الإبداع والإنتاج مسدود تقريبًا أمام النخبة فى العالم الإسلامى.

يضاف إلى ذلك أن هامش الحرية فى غالبية دول العالم الإسلامى ليس من السعة؛ بحيث يستوعب المستوى العقلى، والإبداعى، على الرغم من أن العقل العلمى ليس بالضرورة سياسيًّا دائمًا. فالعقل العلمى مشغول. بإبداعه واختراعه، ولا يتطلب أكثر من مناخ مقبول من حرية الفكر، والحوار، والمناقشة، وتبادل

الرأى للقيام بالتجارب والدراسة، وهذا مع الأسف، مفقود اليوم فى كثير من بلدان العالم الإسلامى، بسببٍ من تحكم الدول الكبرى التى تفرض هذا المناخ من الاستبداد السياسى على عالم المسلمين ليصب رصيده من النوابغ والعقول فى مصلحتها فى نهاية المطاف.

لذلك فأولى الخطوات فى هذا الأمر هى حل المعادلة الصعبة بين العلم والحكم، أو بين الثقافة والسياسة فى العالم الإسلامى، وإلاَّ تبقى الجهود مبعثرة، والاغتراب واقع، سواء كان عن الوطن، أو فى الوطن... وبعد:

فالكتاب الذى نقدمه اليوم، مما نعتز به، ونعتبره ثمرة للنظرة الشمولية، والرؤية الحضارية التى نسعى لتحقيقها فى عالم المسلمين. بل لعل موضوع التخلف من الهموم الأساسية التى يعانى منها العالم الإسلامى، والتى تقتضى الكثير من النظر والتدبر والمساهمة من الجميع. ونعتقد أن الأستاذ الدكتور زغلول النجار، هو من أفضل من يقدم مثل هذه الدراسة، لأنه جمع بين التخصص العلمى الدقيق والرؤية الإسلامية الشاملة.

ومما لاشك فيه أن ما كشف عنه الكتاب من الآفاق للتقدم العلمى والتقنى الذى بلغته دول الشمال بشكلٍ عام يشكل تحديًا كبيراً لعالم المسلمين، ويضعهم – حكامًا وشعوبًا – أمام مسؤولياتهم، لأنهم بواقعهم الحالى لا يزالون يعيشون خارج نطاق الزمان والمكان، والله نسأل أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا السداد.

عمر عبيد حسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يمر المسلمون اليوم بفترة من أقسى فترات التحدى فى تاريخهم الطويل، ويبلغ هذا التحدى مداه فى مجال العلوم والتقنية حيث تخلفت الدول الإسلامية تخلفًا ملحوظًا، بينما تقدمت المعارف فى هذين المجالين تقدمًا مذهلاً خلال القرن العشرين بصفة عامة، وفى النصف الأخير منه بصفة خاصة، مما ميز عصرنا بأنه عصر الصواريخ ورحلات الفضاء، وعصر الذرة والطاقة النووية، وعصر الإلكترونات والحواسيب الإلكترونية الشخصية منها والعملاقة، والصواريخ متعددة المدى، والطائرات ذاتية التوجيه، وأجهزة التحكم عن بعد، وغير ذلك من الأجهزة الإلكترونية فائقة القدرة، وعصر الاستشعار عن بعد، وعصر الهندسة الوراثية، وعصر التقنيات فائقة الدقة، والموصلات فائقة القدرة، والاتصالات فائقة السرعة، والطاقات المتعددة والمتجددة، وأشعات الليزر والميزر(*) وتطبيقاتهما فى مختلف المجالات المدنية والعسكرية، أو بصفة أعم **أنه عصر العلوم والتقنية**، وهذه مجالات لم تدخلها معظم الدول الإسلامية بعد، أو دخلتها بجهود فردية محدودة لا تكاد تساير تقدم العصر فى ذلك، مما تسبب فى وجود هوة شاسعة تفصل الدول الإسلامية (فى زمرة الدول النامية) عن الدول المتقدمة علميًّا وتقنيًّا، فى زمن يتضاعف حجم المعلومات مرة كل خمس سنوات تقريبًا، وتتسارع القدرة على تجديد الإمكانات التقنية كل سنة تقريبا..

ففى النصف الأول من القرن العشرين استمرت النهضة العلمية والتقنية التى بدأت فى القرن التاسع عشر فى نموها. وظهرت صناعة السيارات، كما عرفت صناعة النفط وتقنيات تكريره وتصنيعه، وتم اختراع الطائرة وتطويرها حتى

(*) LASER = Light Amplification by Stimulated Emission of Radiation.
MASER = Microwave (Molecular) Amplification by Stimulated Emission of Radiation.

أصبحت من أقوى أسلحة الحرب، وأفضل وسائل الانتقال المدنية، وتطورت صناعة اللدائن والأنسجة الصنعية، وتمت ميكنة الزراعة وتحسين المحاصيل الزراعية عن طريق الأبحاث المكثفة فى كل من علم الوراثة وتطبيقاته فى الهندسة الوراثية، وزراعة الأنسجة والأعضاء الحية، وعلم كيمياء التربة، والمخصبات الزراعية والمبيدات الحشرية، وغير ذلك من مجالات.

وفى نفس الفترة تقريبًا تطورت صناعة الراديو كوسيلة من وسائل الاتصالات المدنية والعسكرية، وبدأت تجارب أولية لفكرة التلفاز وعرفت صناعة السينما.

وقد تأثر التقدم التقنى بالحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) كما أثر فيهما، فتم تصنيع المدفعية بعيدة المدى، والرشاشات ذاتية الحركة (الأوتوماتيكية)، والغواصات، والطوربيدات، والدبابات، والعربات المصفحة، والطائرات المقاتلة العادية والنفاثة، والصواريخ، والأجهزة المستخدمة للموجات الصوتية (من مثل الراديو)، كما تم تطوير الأسلحة الكهربائية وصنع القنبلة الذرية.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥م) تزايدت معدلات التقدم العلمى والتقنى فأقيمت المفاعلات النووية كمصدر من مصادر الطاقة فى كل من البوارج الحربية وحاملات الطائرات، والغوا صات، ثم فى محطات توليد الطاقة الكهربائية، كما حدثت ثورة هائلة فى كل من الهندسة الكهربائية والإلكترونية باختراع الترانزستور فى سنة ١٩٤٨م مما ساعد على عمل الشبكات الكهربائية والإلكترونية المعقدة فى مساحات صغيرة للغاية، وأعان على تطوير كل من الحواسيب الإلكترونية وأجهزة التحكم الآلى بسرعة مذهلة. وقد تم تجميع أول حاسوب إلكترونى فى سنة ١٩٤٦ م، إلا أن هذه الصناعة قد تطورت بشكل رهيب فى العقود القليلة الماضية، كما تم استحداث كل من أشعتى الليزر والميزر وتم استخدامهما فى كل من الصناعات الحربية والطبية وفى الأبحاث العلمية.

وفى مجال الطب وصناعات الدواء تم استخدام المضادات الحيوية على نطاق واسع، كما دخلت جراحة نقل الأعضاء إلى جسم الإنسان حيز التنفيذ بنجاح.

وكانت أعظم الإنجازات التقنية لهذه الفترة هى رحلات الفضاء، وقد بدأت بتجارب الصواريخ الموجهة. وأثمرت بإطلاق الاتحاد السوفييتى للقمر سبوتنك – ١ فى أكتوبر ١٩٥٧م، ثم بإرسال الولايات المتحدة الأمريكية برجل إلى سطح القمر فى ٢٠ يوليو ١٩٦٩م وابتداءً من سنة ١٩٨٠م تم فحص كواكب المجموعة الشمسية عن قرب بواسطة مركبات الفضاء غير المأهولة.

كذلك فقد قامت أقمار الاتصالات الصنعية بثورة فى عالم الاتصالات التليفونية والراديوية والتلفازية عبر العالم، وفى الكشف عن الثروات الأرضية، ومكافحة الآفات الزراعية بطريقة الاستشعار عن بعد، وما تزال الجهود تبذل من أجل تحقيق فكرة إقامة محطات فضائية متعددة لعلها تسمح بتنقل الإنسان عبر فضاء المجموعة الشمسية فى المستقبل غير البعيد.

وكان من أبرز معطيات الثورة العلمية والتقنية المعاصرة، ومن أبرز أسباب نجاحها ربط هذين الرافدين الهامين من روافد المعرفة البشرية (**وهما العلم والتقنية**) برباط وثيق، لا تستطيع التقنية فيه أن تنفصل عن العلم، ولا يستطيع العلم فيه أن يتقدم بغير تقنيات دائمة التطور، وذلك فى ظل إدارة عصرية منضبطة، وتنظيم دقيق لجمع المعلومات وتوثيقها وحسن تبويبها فيما يعرف اليوم باسم «**ثورة المعلومات**».

وفى غمرة هذا التقدم العلمى والتقنى المذهل تخلف العالم الإسلامى تخلفًا شديدًا بعد أن حمل وحده لواء المعرفة فى كل منحى من مناحى الحياة لعشرة قرون كاملة (من القرن السادس الميلادى إلى مشارف عصر النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى).

فقد بدأ رسول الله – ﷺ – فى تلقى الوحى فى مطلع القرن السابع الميلادى م)، وتمت هجرته إلى المدينة المنورة فى سنة ٦٢٢م، حيث أقام دولة الإسلام

التى تمكنت من فتح مكة المكرمة سنة ٦٣٠م (٨هـ)، ولحق - عليه الصلاة والسلام - بالرفيق الأعلى سنة ٦٣٢م (١١هـ).

ومن بعده - ﷺ - بدأت الخلافة الراشدة التى استمرت إلى سنة ٦٥٨م (٣٨ هـ) وتم خلالها فتح كل من العراق وبلاد الشام، وإيران، وأذربيجان، وأرمينية، وخراسان، وبلاد ما وراء النهرين، والتركستان الغربية، ومصر، وليبيا، وأجزاء من السودان، وذلك بعد إيقاع سلسلة من الهزائم المنكرة بكل من إمبراطوريتى الفرس والروم والقضاء عليهما بالكامل. ثم جاءت الدولة الأموية (٦٦١ م - ٧٥٠ م الموافق ٤١ هـ إلى ١٣٣هـ) وفى خلالها تم فتح كل من الهند، وبقية شمال إفريقية حتى طنجة، وبلاد الأندلس وجنوب فرنسا والتركستان الشرقية.

وتلت ذلك الخلافة العباسية (٧٥٠م - ١٢٥٨م الموافق ١٣٣هـ - ٦٥٦هـ) وفى عهدها تم فتح كل من جزيرتى كريت وصقلية، وعدد من المدن الإيطالية (مثل بارى ومسينا)، وازدهرت العلوم والتقنية والعمران ازدهاراً كبيراً.

وفى آخر عهد الدولة العباسية تعرض العالم الإسلامى لهجمات الحروب الصليبية فى عدد من الحملات المتتابعة التى بدأت من ١٠٩٦م (٤٩٠هـ) واستمرت إلى اليوم، وتخللتها غزوة المغول المدمرة (١٢٢٠م - ١٢٦٠م الموافق ٦١٧هـ - ٦٥٩هـ)، ولولا قيام دولة الخلافة العثمانية (١٢٥٨م - ١٩٢٤م الموافق ٦٥٧هـ - ١٣٤٣هـ) لكان فى انتهاء حكم المسلمين لبلاد الأندلس (٨٩٨ هـ / ١٤٩٢م) ضربة قاصمة لأمة الإسلام، خاصة بعد تعرض العالم الإسلامى للاحتلال الغربى والشرقى فى معظم أجزائه وذلك فى سلسلة متصلة من المؤامرات التى استمرت إلى اليوم الراهن.

فبعد احتلال مساحات كبيرة من أرض المسلمين تم إسقاط دولة الخلافة الإسلامية فى سنة ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ)، وتم تمزيق هذا الجسد الواحد إلى أكثر من سبعة وخمسين دولة ودويلة متباينة المساحة وتعداد السكان، بالإضافة إلى أقليات منتشرة فى كل دولة من الدول غير الإسلامية، تفوق أعدادها مئات الملايين فى بعض الأحوال كما هو الحال فى كل من الصين والهند.

وفى ظل هذه الهجمة الشرسة تم احتلال أجزاء كثيرة من بلاد المسلمين مثل فلسطين، وولايتى جامو وكشمير ، والولايات الإسلامية فى كل من الصين والهند والفلبين وتايلاند والبلقان وسبتة ومليلية فى المغرب، ومؤخرا تم احتلال كل من العراق وأفغانستان من قبل القوات الأمريكية والبريطانية الغازية وأذنابهما من المتحالفين مع هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد أدى هذا التفتيت المتعمد إلى تشتيت المقومات المادية والروحية والطاقات البشرية للمسلمين، فى وقت أخذ العالم الاتجاه إلى التوحد فى تكتلات كبرى، من مثل الوحدة الأوربية ولم تعد هناك إمكانية لوجود مستقل لأية تجمعات بشرية يقل تعدادها عن ثلاثمائة مليون نسمة .

وقد أدى تفتيت العالم الإسلامى إلى إفقاره على الرغم من ثرواته البشرية والطبيعية الهائلة، فالغالبية العظمى من سكان الدول الإسلامية اليوم (باستثناء الدول النفطية) تعيش تحت الحد الأدنى للكفاف اللازم لصون كرامة الإنسان، ففى تصنيف للأمم المتحدة قسم العالم إلى دول متقدمة اقتصاديا تشمل الدول الصناعية الكبرى والمتوسطة وتمثلها ٣٧ دولة أوروبية وأمريكية وآسيوية يبلغ تعدادها حوالى ألف ومائة مليون نسمة (أى أقل من ١٦٪ من سكان العالم) ودول نامية فقيرة ودول معدمة تمثل بقية سكان العالم (٨٤٪) بتعداد يصل إلى أكثر من خمسة بلايين نسمة، وتقع غالبية دول العالم الإسلامى المعاصر فى مجموعتى الدول النامية الفقيرة والدول المعدمة، فمن بين ست وثلاثين دولة معدمة فى العالم هناك ٢٥ دولة إسلامية معاصرة، وقد صنفت هذه الدول المعدمة على أساس أن نصيب الفرد من رعاياها من إجمالى الدخل القومى كان أقل من مائة دولار أمريكى فى السنة، وأن نسبة الأمية فيها فى حدود ٨٠٪ أو أكثر، وأن نصيب الصناعة من إجمالى الدخل القومى لا يتعدى ١٠٪ .

كما أدى تفتيت العالم الإسلامى إلى انقسامه إلى دول نفطية معدودة، قليلة السكان، متخمة بالثراء إلى حد البطر أحيانا، وبقية دول الأمة معدمة إلى

حد الفاقة فى مجموعها، فانتشر الفقر فى أغلب دول العالم الإسلامى المعاصر، وبسبب انتشار الفقر أهملت عمليات التنمية البشرية والمادية، فقد أهمل التعليم، وبإهماله تفشت الأمية بين البالغين من الشباب والفتيات والرجال والنساء، وأهملت الرعاية الصحية وبذلك تفشت الأمراض وساءت الأحوال الصحية لأفراد المجتمع، كما أهملت التنمية الزراعية والصناعية والاجتماعية، وبإهمالها تقلص الاقتصاد، وزادت الديون، وغرقت الأمة فى وحل الربا ولم يعد هناك مجال للأخذ بأسباب التقدم العلمي والتقنى، وتخلفت الأمة إعلاميا، وانحسرت سياسيا، وهزمت عسكريا، وأصبحت الأراضى الإسلامية أكثر أراضى الدنيا عرضة للغزو، وأصبحت ثرواتها عرضة للابتزاز، وأصبحت دماء أبناء الأمة مراقة فى كل مكان، وأصبحت مقدساتها مهددة من كل جاهل وأعراضها مستباحة من كل ساقط جبار مفسد فى الأرض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ويرجع السبب الرئيسى فى فقر الدول الإسلامية إلى هذا **التفتيت** الذى لم يجعل لأى منها القدرة على القيام بذاتها. وذلك لأن غالبية الدول الإسلامية المعاصرة لا تمثل كيانات حقيقية نمت من خلال التفاعلات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية على المدى التاريخى الطويل كما تنمو الدول عادة، ولكنها فى غالبيتها كيانات مصطنعة، رسمت القوى الاستعمارية العالمية حدودها الراهنة، وحافظت عليها لتبقى الأمة على هذه الصورة من التفتت والتشرذم الذى لا يمكّن أيًّا منها من تشكيل وحدة ثقافية / سياسية / اجتماعية / اقتصادية متكاملة أو شبه متكاملة.

وإمعانًا فى هذا التفتيت فقد وظفت القوى الاستعمارية – وما تزال توظف – مبررات الفرقة كلها بين هذه الكيانات الممزقة من خلافات حدودية وسياسية وقبلية، وعرقية،ودينية ومذهبية وغيرها من أجل الإبقاء على فرقتها وإشعال الحروب الباردة والساخنة بين أبنائها.

وبهدف الحيلولة دون قيام أدنى قدر من التعاون بين الأشقاء، ودون تحرك المال الإسلامى بين الدول الإسلامية على شكل استثمارات تعين على تنشيط عملية التنمية، قامت الدول الكبرى بترتيب سلسلة من الانقلابات العسكرية، والانقلابات المضادة لتحدث جواً من عدم الاستقرار السياسى والفوضى الاقتصادية، التى لا تشجع على تحرك أية أموال بين الدول المسلمة، حتى لا تجد فوائض أموال الدول الغنية منها طريقها إلا إلى خزائن وبنوك الدول الكبرى إمعانا فى زيادة الدول الفقيرة منها فقرا وحاجة إلى الدول الكبرى.

وقد أدى إفقار الدول الإسلامية إلى **تفشى الأمية بين البالغين** من أبنائها بصورة مزعجة، تتراوح نسبتها بين ٥٠٪ ، ٨٠٪ بمتوسط حوالى ٥٨٪، بينما تقل نسبة الأمية فى الدول الغنية عن ٢٪، ولا تتعدى هذه النسبة ٤٥٪ فى المتوسط فى دول العالم الثالث، مما يعنى بوضوح أن أعلى نسبة للأمية بين البالغين فى عالم اليوم هى فى الدول الإسلامية التى نزلت أولى آيات كتابها من قبل ١٤٠٠ سنة أمرا بالقراءة والكتابة وتعظيما لأدواتها، ومدحا فى العلم والعلماء وتكريما لمنزلتهما.

وبالإضافة إلى الفقر والأمية كان **للتخلف السياسى** فى الدول الإسلامية المعاصرة أثره البالغ فى تخلفها علميًّا وتقنيًّا لأن ازدهار العلم يحتاج إلى مناخ من الاستقرار والحرية، واحترام حقوق الإنسان والمحافظة على كرامته، بينما يسود الاستبداد السياسى معظم دول العالم الإسلامى المعاصر تدعمه القوى الدولية الكبرى بطريق مباشر أو غير مباشر، خوفا من وصول الإسلاميين إلى السلطة. وإن لم يعمل دعاة الإصلاح فى الأمة الإسلامية على إقامة أنظمة شرعية على أساس من بيعة صحيحة من أهل الحل والعقد، أو من انتخابات نزيهة يشترك فيها كل الشعب، وإذا لم يعملوا على وجود تيار عام فى الأمة يرفض الظلم والاستبداد السياسى كما يرفض الوصاية على الشعوب فلا أمل فى أى إصلاح أو تقدم علمى أو تقنى منشود.

ومن عوامل تخلف المسلمين علميًا وتقنيًا **إهمال دراسات العلوم والهندسة** وبإهمال هذه الدراسات ندرت الخبرات العلمية والتقنية، وبندرتها تخلفت الأمة، وتبلغ نسبة العلماء والتقنيين إلى مجموع تعداد السكان فى الدول الإسلامية اليوم رقمًا لا يكاد يذكر إذا قورن بنسبتهم فى أى من الدول المتقدمة علميًا وتقنيًا إذ تتراوح هذه النسبة بين ٢٠ فى المليون (بنجلاديش) و١٩٠ فى المليون (مصر)، بينما تتراوح هذه النسبة عند غير المسلمين بين ٤٣٠٠ فى المليون (الكتلة الغربية) و٨٢٠٠ فى المليون (الكتلة الشرقية)، ويبلغ متوسط تلك النسبة فى الدول النامية بصفة عامة حوالى ١٠٠ فى المليون .

وفى الوقت الذى تنفق فيه الدول الكبرى ما بين ٢٪ و٤٪ من إجمالى ناتجها القومى على عمليات توظيف البحث العلمى من أجل التنمية فإننا نجد إنفاق الدول الإسلامية (كجزء من الدول النامية) لا يتعدى ٣ر٠٪، على ضخامة الدخول القومية فى الدول الكبرى وضآلتها فى معظم الدول النامية، وعلى ذلك فإن مجموع إنفاق الدول النامية لا يمثل أكثر من ٦ر١٪ من مجموع إنفاق دول العالم على عمليات البحث العلمى وتوظيفه فى تطوير التقنية، بينما تنفق الدول الصناعية أغلب النسبة المتبقية (٤ر٩٨٪) . .

بالإضافة إلى ما سبق فإن **قيام مختلف المؤسسات العلمية والتقنية فى الدول الإسلامية المعاصرة على أنماط مستوردة** قد أدى إلى غرابة هذه المؤسسات فى بيئاتها وغرابة خريجيها، وإلى العديد من الحواجز النفسية والاجتماعية التى حالت بين هذه المؤسسات وبين تحديد أهداف واضحة لها، ودون قيام خريجيها بواجباتهم كاملة فى مجتمعاتهم . كما أن استمرار الدول الإسلامية فى الاعتماد على جامعات الغرب والشرق فى تكوين طاقاتها العلمية المتخصصة قد حال دون قيام محاولات جادة لتأسيس قواعد ذاتية راسخة للبحث العلمى والتقنية فوق أراضيها .

كذلك كان فى انعدام التنسيق والتعاون بين مختلف المؤسسات العلمية

والتقنية فى العالم الإسلامى المعاصر ضياع وتشتيت للجهود والأموال الموظفة فى خدمة هذه القضية، كما كان فى انعدام وجود الحوافز المادية والمعنوية الكافية صرف للناس عن هذه التخصصات، ومدعاة إلى هجرة كثير من العلماء والتقنيين لمراكزهم ولبلادهم، وقد أعان على هذه الهجرة للكفاءات العلمية والتقنية عدم توفر وسائل البحث العلمى والتقنى، وندرة كل من القوى الفنية المساندة، والخدمات المكتبية والتوثيقية المتطورة فى كثير من الدول الإسلامية، فمنذ بداية الستينيات وحتى منتصف السبعينيات فقدت الدول النامية قرابة الأربعمائة ألف متخصص رحلوا إلى الدول الصناعية الكبرى، بمتوسط ألف عالم وتقنى فى اليوم الواحد. وهذه الطاقات المفقودة تمثل خسارة سنوية للدول النامية تقدر بحوالى اثنين وأربعين مليارًا من الدولارات. ولا يزال هذا النزيف للعقول المسلمة يفيض إلى الغرب فى كل يوم دون أدنى محاولة جادة لإيقافه. ومن أخطار استمرار هجرة الكفاءات العلمية والتقنية من دول العالم الإسلامى إلى الدول الكبرى زيادة تخلف هذه الأمة وإعاقة محاولات التنمية فيها، وزعزعة معنويات العلماء والتقنيين العاملين بها.

وإن من أبرز عوامل هذا التخلف استمرار اعتماد الجامعات والمعاهد الفنية ومراكز البحوث فى كثير من الدول الإسلامية على الأساتذة والفنيين من غير المسلمين، وتمييزهم عن المسلمين، وتسليم المراكز القيادية فى معظمها إلى أقل الناس تأهلاً لتحمل أمانة المسئولية، واستمرار اعتمادها على الاستيراد من الدول الأخرى بدلاً من التكامل فيما بينها.

هذه هى بعض الأسباب التى أدت إلى تخلف العالم الإسلامى المعاصر عن مسيرة التقدم العلمى والتقنى، وإذا أضيف ذلك إلى غياب التطبيق الصحيح للإسلام، فى جو من الصراع الشديد بين دعاة التغريب – وقد مُكنوا من مقامات اتخاذ القرار فى أغلب الدول الإسلامية – ودعاة التأصيل – وقد عزلوا واضطهدوا وسجنوا وعذبوا فى معظم الدول التى تدعى نسبتها إلى الإسلام – والشعور

الداخلى عند كثير من المسلمين المعاصرين بالانهزام والتخلف والضعف أمام التكتلات العالمية الكبرى، وغياب كل من الاستقرار السياسى والحرية الفردية والجماعية، واحترام حقوق الإنسان والمحافظة على كرامته، اتضحت الأسباب التى كانت من وراء تخلف المسلمين اليوم عن الركب، وقد استعرضت هنا من قبيل تشخيص الداء بحثًا عن الدواء، لا من قبيل تثبيط الهمم وإطفاء الحماس لأن الأمة الإسلامية - على الرغم من كل ذلك - لا تزال تملك من القدرات البشرية والروحية، والإمكانات المادية ما يؤهلها لقيادة الإنسانية من جديد، وإنقاذها من الهاوية التى تتردى فيها اليوم، خاصة وأن الدول التى تقدمت علميا وتقنيا وحققت من مستويات الرفاهية المادية ما لم يتحقق لجيل من البشر من قبل هى أكثر الأمم تعاسة وشقاءً اليوم، لأن هذا التقدم العلمى والتقنى المذهل قد رافقه انحسار روحى وأخلاقى ودينى مرعب حَوَّل الناس إلى أجساد خالية من صحيح الاعتقاد، وحرمهم سليم العبادة كما حرمهم من كثير من مكارم الأخلاق وحسن المعاملة بين الناس، فانهارت الأسرة وضاعت قدسيتها، وتفككت الروابط الإنسانية التى لم يعد يجمعها إلا المكاسب المادية العاجلة، وانهارت الأخلاق تحت مظلة الحرية بلا حدود، وانحط الإنسان إلى ما دون الحيوانية حين أقرت أغلب الحكومات الغربية الشذوذ الجنسى، وسمحت بزواج المثل، وأجازت لهؤلاء الشواذ حق التبنى فى هذه البيئة العفنة، وأعطت لهم كافة الحقوق المادية والمعنوية فى المجتمع.

ويبقى الأمل الوحيد فى إنقاذ البشرية الضالة التائهة المستعلية بما بين أيديها من تقنيات متقدمة وأكوام من أسلحة الدمار الشامل، يبقى الأمل الوحيد فى أمة الإسلام - التى وإن تخلفت علميا وتقنيا فلا يزال بيدها من نور الإسلام العظيم وهدى خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) ما يمكن أن يعينها على ذلك، خاصة أن الدول الصناعية الكبرى التى زادها التقدم العلمى والتقنى ثراء ورفاهية وقوة مادية، قد زادها اضمحلال الوازع الدينى، وجفاف النبع الروحى، وفقدان

الفهم الصحيح لرسالة الإنسان فى هذه الحياة، زادها ذلك فى الوقت نفسه تحللاً وتفسخًا وانحطاطًا وتميعًا وتعاسة وشقاءً، مما جعل مجتمعاتها تتآكل من داخلها على الرغم من إطار التقدم العلمى والتقنى الذى تعيش فيه. وليس أدل على ذلك من استخدام الحضارة المادية المعاصرة لإنجازاتها العلمية والتقنية استخداماً غير منضبط بأية قيم دينية أو أخلاقية مما أدى إلى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية، وإلى الإسراف المخل فى الإنتاج، والتبديد للكثير من الطاقات والأموال، والإغفال غير المسؤول للعديد من عواقب التصنيع من مثل تلويث البيئة (الهواء والماء والتربة)، والتهديد باختلال الاتزان المناخى للأرض، وبحدوث تغيرات جذرية فى الطقس وفى أنظمة الحماية المختلفة للأرض من ويلات الجسيمات الكونية المتسارعة والإشعاعات المهلكة، وإلى العبث بقضايا الهندسة الوراثية، وإلى تعقيد آلة الحرب بصورة مرعبة، وإلى تكديس السلاح التقليدى المتطور وغير التقليدى من أسلحة الدمار الشامل من مثل الأسلحة الكيميائية والحيوية والنووية، والصواريخ العابرة للقارات والمتوسطة المدى والقصيرة، بكميات تزيد مرات عديدة عن اللازم لتدمير الحياة فوق هذا الكوكب، هذا بالإضافة إلى تكدس الناس فى المدن الكبرى والانعكاسات **الصحية والنفسية** لذلك على الأفراد والجماعات وعلى أعصابهم وأخلاقهم وعلاقاتهم، وإلى فقدان الإنسان لذاته ولرسالته فى هذه الحياة، وتوجهه توجهًا ماديًّا صرفًا خاليًا من معانى الروح. وقد أدى ذلك إلى انقسام الناس حيال قضية التقدم العلمى والتقنى إلى موقفين متعارضين تمامًا، **أولهما** يرى ضرورة مسايرة الركب مهما كانت النتائج، انطلاقًا من الاعتقاد الخاطئ بأن هذا هو قدر الإنسانية وعليها أن تسير فيه حتى النهاية، بينما يرى أصحاب **الموقف الثانى** ضرورة وقف عجلة التقدم العلمى والتقنى، وهجر مختلف منجزاتهما، والعودة بالإنسان مرة أخرى إلى الطبيعة، وحجتهم فى ذلك أن النتائج الأساسية لعملية التقدم العلمى والتقنى كانت زيادة فى بطالة اليد العاملة، وفى قلق الإنسان، واضطراب أعصابه، واعتلال صحته، وضياع ذاته،

وزيادة في عبوديته للآلة، وانجرافه في تيار المادة، وتخليه عن قيمه الروحية ومثله العليا، وزيادة في تكدس الأسلحة واستنزاف موارد الطاقة، وزيادة في انتشار الجوع وندرة الغذاء، وتصاعد معدلات التضخم والغلاء، وزيادة في إفساد الأرض ومختلف بيئاتها بصورة يستحيل معها الإصلاح من مثل التلوث الحراري والكيميائي والإشعاعي، وتكدس مخلفات العمليات الصناعية، وزيادة معدلات الضجيج، وتأثير ذلك كله على الإنسان وصحته وأعصابه ومختلف مراكز الحس فيه، وعلى بيئته وجميع صور الحياة فيها.

وهنا يبرز التساؤل: هل يجوز لإنسان هذا العصر أن يلقي بثروته العلمية والتقنية الهائلة بهذه البساطة؟ وهل يمكن لمثل هذا الموقف السلبي أن يشكل الرد السليم على سوء استغلال الإنسان لمعطيات التقدم العلمي والتقني؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك فما هو البديل؟

وللإجابة على ذلك **نؤكد على أن التقدم العلمي والتقني هو من ضرورات الوجود الإنساني على الأرض، ومن ثم فإن موقف الرفض له - على نبل دوافعه- هو موقف سلبي لا يقره العقل ولا يقبله منطق الحياة، وفي الوقت نفسه فإن تلك البدهيات ذاتها تحرم استخدام معطيات العلوم والتقنية للإفساد في الأرض**، واستنزاف ثرواتها وتلويث بيئاتها، ومن هنا يتضح أن **البديل المطلوب هو تطور علمي وتقني يصاحبه فهم صحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة: عبدا لله، يعبده - تعالى - بما أمر، ومستخلفا في الأرض مطالبا بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها بالتزام ديني صحيح قائم على أساس من عقيدة سليمة، وعبادات ربانية كاملة والتزام أخلاقي وسلوكي نبيل** يكون الضابط لعدم استخدام معطيات العلوم والتقنية في أعمال الهدم والاستعلاء والتجبر التي يعاني منها عالمنا المعاصر.

والعقيدة لا يمكن أن تكون صناعة بشرية لأنها قائمة على الإيمان بالغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء.

والعبادة كذلك لا يمكن أن تكون صناعة بشرية لأن الله – تعالى – يحب أن يعبد بما أمر . وكذلك الأخلاق والمعاملات لا يمكن أن يكونا صناعة بشرية، بل لابد لهما من صياغة ربانية كاملة لأنهما من ضوابط السلوك، والتاريخ يؤكد عجز الإنسان دوما عن وضع ضوابط صحيحة لسلوكه، ومن هنا فالضابط الأخلاقى والسلوكى المطلوب لابد وأن ينطلق من تعاليم دينية صحيحة، والدين – بهذه الركائز الأربع الأساسية من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات – لا يمكن أن يكون صناعة بشرية لأنه يقوم فى الأصل على عدد هائل من الحقائق الغيبية والضوابط السلوكية التى هى فوق الإدراك الحسى للإنسان أو فوق قدراته، وبالتالى فلابد له فيها من بيان ربانى صحيح لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية.

ولما كان الإسلام متمثلاً فى رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ هو الرسالة السماوية الوحيدة الموجودة بين أيدى الناس باللغة نفسها التى نزل بها والتى تعهد الله – تعالى – بحفظها فحفظت، فإن البديل المطلوب لمشاكل التقدم العلمى والتقنى المعاصر هو تطور علمى وتقنى فى ظل من الإيمان الصحيح بالله وبالمفهوم الإسلامى الشامل للإنسان والكون والحياة، ولرسالة الإنسان فى هذه الدنيا، وإيمانه بمصيره من بعدها.

والله – تعالى – أسأل أن يجعل من صفحات هذا الكتاب طريقا إلى تحقيق ذلك، وهو القادر على كل شيء، وهو نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الفقير إلى عفو ربه

زغلول راغب النجار